

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا.

الإنسان!

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْكَرَامُ!

لَقَدْ خَلَقَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِنْسَانُ كَائِنًا قَرِيدًا، يُفَكِّرُ بِعَقْلِهِ، وَيَشْعُرُ بِقَلْبِهِ، وَيَخْتَارُ بِإِرَادَتِهِ، وَيُضْفِي عَلَى حَيَاتِهِ مَعْنًى مِنْ خِلَالِ اخْتِيَارَاتِهِ. إِنَّ الْوِلَادَةَ إِنْسَانًا نِعْمَةً عَظِيمَةً، وَلَكِنَّ الْأَهَمَّ مِنْ ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَظَلَّ الْمَرْءُ إِنْسَانًا طَوَالَ حَيَاتِهِ، فَيَسْعَى إِلَى نَيْلِ رِضَا اللَّهِ، وَيَعِيشَ حَيَاةً تَتَوَافَقُ مَعَ الْعَايَةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهَا، وَأَنْ يَبْقَى أَبْوَابُ الْخَيْرِ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ مَفْتُوحَةً، وَأَلَّا يُدْخَلَ إِلَيْهَا الشُّرُورُ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَعْرَاءُ!

كَثِيرًا مَا نَبَحْتُ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْأُمُورِ الْكَبِيرَةِ. بَيِّدَ أَنْ مَعَايِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَامِنَةٌ فِي اللَّحَظَاتِ الصَّغِيرَةِ مِنَ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ. وَإِنَّ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي عَصْرِ السَّعَادَةِ تَحْمِلُ لَنَا حِكْمًا عَظِيمَةً. فَذَاتَ يَوْمٍ، جَاءَ رَجُلٌ مُسْنً إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَتَبَاطَأَ الْحَاضِرُونَ فِي إِفْسَاحِ الْمَكَانِ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الرَّحْمَةِ ﷺ: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا".<sup>1</sup> نَعَمْ، فَمَنْ أَكْرَمَ كِبَارَ السِّنِّ نَالَ الْإِكْرَامَ طَوَالَ حَيَاتِهِ. وَمَنْ عَامَلَ الْأَطْفَالَ بِالرَّأْفَةِ تَخَلَّصَ مِنْ قَسَاوَةِ قَلْبِهِ. وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى وَالِدَيْهِ وَجَدَ الطُّمَأْنِينَةَ وَالسَّعَادَةَ بِجَوَارِهِ. وَمَنْ زَارَ الْمَرْضَى أَدْخَلَ السَّكِينَةَ عَلَى رُوحِهِ. وَمَنْ شَارَكَ الْيَتَامَى وَمَنْ لَا مُعِيلَ لَهُمْ مَاثِدَّتَهُ حَمَلَ الرَّحْمَةَ وَالْبَرَكَةَ إِلَى بَيْتِهِ.

وَمَنْ أَلْقَى السَّلَامَ عَلَى جَارِهِ كَانَ سَبَبًا فِي انْتِشَارِ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ.

إِنَّ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَلِفْتُ أَنْظَارَنَا بِقَوْلِهِ: "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى"<sup>2</sup>، وَمَعَ ذَلِكَ، قَدْ يَغْفُلُ الْإِنْسَانُ عَنِ الْمَكَانَةِ الَّتِي مَنَحَهُ رَبُّهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ يَجْعَلُ مَنْصِبُهُ سَبَبًا لِلتَّعَالَى عَلَى الْآخَرِينَ، وَتَرْوُثُهُ وَسِيلَةً لِلتَّفَاخُرِ، وَعِلْمُهُ أَدَاةً لِلتَّكْبُرِ، وَقُوَّتُهُ ذَرِيعَةً لِإِيْدَاءِ الْآخَرِينَ. غَيْرَ أَنَّ دِينَنَا الْإِسْلَامِيَّ يُعَلِّمُنَا أَنَّ قِيَمَتَنَا لَا تَنْبُعُ مِنْ مَظْهَرِنَا الْخَارِجِيِّ، وَلَا مِنْ ثَرَوَاتِنَا، وَلَا مِنْ مَنْصِبِنَا، وَلَا مِنْ مَكَانَتِنَا فِي الْمُجْتَمَعِ. فَالْغِنَى الْحَقِيقِيُّ هُوَ الْإِعْتِنَاءُ بِالْمُحْتَاجِينَ، وَالْقُوَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ هِيَ كَظْمُ الْغَيْظِ، أَمَّا الرِّفْعَةُ الْحَقِيقِيَّةُ فَإِنَّمَا هِيَ التَّحَلِّيُ بِالتَّقْوَى.

إِخْوَانِي!

أَحْيَانًا لَا تُؤَلِي قُلُوبَنَا مِنَ الْعِنَايَةِ مَا تُؤَلِيهِ وَجُوهَنَا. وَلَا نَخْصِصُ لِمَحَاسَبَةِ أَنْفُسِنَا مِنَ الْوَقْتِ مِثْلَ مَا نَقْصِيهِ أَمَامَ الْمَرْأَةِ. وَقَدْ نُحَوِّلُ كَلِمَةً صَغِيرَةً إِلَى حِفْذٍ كَبِيرٍ. وَقَدْ تُبْقَى الْخُصُومَاتُ بَيْنَنَا حَيَّةً سِنِينَ طَوِيلَةً، وَلَا نَسْلُكُ طَرِيقَ الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ. وَقَدْ لَا نَطْرُقُ بَابَ إِخْوَانَتِنَا بِسَبَبِ نِزَاعِ الْمِيرَاثِ. وَقَدْ لَا نُثْقِي السَّلَامَ عَلَى جِيرَانِنَا الَّذِينَ وَقَفْنَا مَعَهُمْ كِفَقًا يَكْتِفِي فِي الصِّفِّ الْوَاحِدِ، وَقَدْ نَقْطَعُ صِلَةَ الرَّحِمِ مَعَ أَقَارِبِنَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْأَعْرَاءُ!

أُرِيدُ أَنْ أُعِيدَ ذِكْرَ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي مُسْتَهْلِ خُطْبَتِنَا مَرَّةً أُخْرَى، لِأَهَمِّيَّتِهِ: إِنَّ الْوِلَادَةَ إِنْسَانًا نِعْمَةً عَظِيمَةً، وَلَكِنَّ الْأَهَمَّ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَظَلَّ الْمَرْءُ إِنْسَانًا طَوَالَ حَيَاتِهِ. فَلْتُبَادِرْ مِنَ الْيَوْمِ، دُونَ تَأْخِيرٍ، إِلَى إِعَادَةِ الرَّأْفَةِ إِلَى بُيُوتِنَا، وَالرَّحْمَةِ إِلَى شَوَارِعِنَا، وَالْأَمَانَةِ إِلَى مُعَامَلَاتِنَا التِّجَارِيَّةِ. وَلْتُظْهَرِ أَلْسِنَتُنَا مِنَ الْغَيْبَةِ، وَقُلُوبُنَا مِنَ الْكِبَرِ. وَلْتُسْتَخْدِمَ قُوَّتُنَا لِنَكُونَ مَلَاذًا لِلضَّعْفَاءِ، وَلْتُسَخَّرْ كَلَامُنَا لِجَبْرِ الْقُلُوبِ الْمُنْكَسِرَةِ. فَحِينَئِذٍ سَتَكْتَسِبُ مَسِيرَتُنَا الْفَائِزَةُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَعْنًى، وَسَتَتَحَوَّلُ الرَّحْمَةُ الَّتِي زَرَعْنَاهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَى رَحْمَةٍ أَبَدِيَّةٍ فِي الْآخِرَةِ.

<sup>1</sup> سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ، كِتَابُ الْبِرِّ، 15.

<sup>2</sup> سُورَةُ الْغِيَاةِ، 36/75.

